إعلام المتعالم وتذكير من تعلّم

بمدى قبول الصوفية للعلم ومن تعلّم

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد حسّونة





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى لدار الإمام المجدد
للنشر والتوزيع
١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٢٧٣٧/ ٢٠٠٥

دار الإمام المجدد

دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع

شارع الهدي المحمدي - مساكن عين شمس الشرقية - القاهرة - مصر
جوال: ٠١٠٥٢٦١١٤٩ - ٠١٠٦٤٢٦٠٣٥
E-Mail : emam_mujadded@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على نبينا وآله ،،،
ثم أما بعد...

اعلم - وفقنا الله تعالى وإياك - أن العلم الشرعي هو أفضل مطلوب، وأشرف مرغوب؛ إذ به يعبد الله تعالى على بصيرة، ويتحقق التوحيد وتنفع الوسيلة، لذا نصبت هذا الكلم تحضيضًا للطالب، وتهييجًا له؛ للجد في الطلب، ومن ثم، يدرج في مدارج السالكين إلى رب العالمين على هدى، ووفد القادمين على الله تعالى على رضى، إذ به يسلُك مسالك الربانيين، ويذهب مذاهب المخلصين الخالصين، ويرتقي مراقي الصعود إلى المعالي قائدًا، ويبلغ منتهى آماله راشدًا، وساعتئذ تسمو نفسه، وتزكو روحه، ويتذوق حلاوة العلم ولذته، وآنذاك يرزق توقير أهله، كلازم صحيح من لوازمه الملزمة، ومقتضى مستقيم من مقتضياته القاضية.

أقول: صفة العلم صفة حقيقية ثابتة لبارينا - سبحانه - بدلالة الكتاب والسنة وهي صفة ذاتية «بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به، فلا يخفى عليه منها شيء».

[(شرح الواسطية) للشيخ محمد خليل هراس - رحمه الله - ص(٩١ - ٩٢)].

قال الإمام البيهقي - رحمه الله - بعد أن ساق جملة من الآيات في الباب: وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني - رحمه الله - من أسامي صفات الذات ما هو للعلم:

منها، العليم: ومعناه تعميم جميع المعلومات.

ومنها، الخبير: ويختص بأنه يعلم ما يكون قبل أن يكون.

ومنها، الحكيم: ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف.

ومنها، الشهيد: ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر.

ومعناه: أنه لا يغيب عنه شيء.

ومنها، الحافظ: ويختص بأنه لا ينسى ما علم.

ومنها، المحصي: ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم، مثل ضوء النور واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم من ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا

يعلم وهو الذي يخلق، وقد قال - جلا وعلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ٤].

[انظر (الأسماء والصفات) للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (١/ ٢٩٣ - ٢٩٤)].

نعم... فلـ«قد تكاثرت الآيات والأخبار والآثار وتواترت وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت على فضيلة العلم، والحث على تحصيله، والاجتهاد في اقتباسه وتعليمه... أما الآثار عن السلف فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، لكن نذكر منها أحرفًا مشيرين إلى غيرها ومنبهين... ».

[(المجموع شرح المهذب) للإمام النووي (١/ ١٨ - ١٩)].

هذا.. ولقد نظرت كما نظر غيري فلم نجد أجمع ولا أجمل مما ذكره العلامة شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - عن العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه، وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه، وذلك في كتابه السعيد (مفتاح دار السعادة) بتصرف، حيث قال: «استشهد

سبحانه بأولي العلم على أجلّ مشهود عليه وهو توحيده فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

[آل عمران: ١٨].

وهذا يدلّ على فضل العلم وأهله من وجوه:

– منها: استشهادهم دون غيرهم من البشر، واقتران شهادتهم بشهادته، اقترانها بشهادة ملائكته، وأن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم؛ فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**» وهذا يدلّ على اختصاصهم به، وأنهم أهله وأصحابه...

– أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجلّ شاهد، ثم بخيار خلقه: وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلًا وشرفًا.

– أنه استشهد بهم على أجلّ مشهود به وأعظمه وأكبره

وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

– أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم، بمنزلة أدلته وآياته وبراهنيه الدالّة على توحيده.

– أنه سبحانه نفي التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[الزمر: ٩].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وهذا يدلّ على غاية فضلهم وشرفهم – أنه سبحانه أخبر عن أولي العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقًا وجعل هذا ثناء عليهم، واستشهادًا بهم فقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾.

[سبأ: ٦].

– أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل

ذلك كالشهادة منهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

[النحل: ٤٣].

وأهل الذكر: هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء.

– أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها لاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٤].

– أنه سبحانه سلّى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا فقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦ – ١٠٨].

وهذا شرف عظيم لأهل العلم، وتحته أن أهله العالمون

قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا، فسواء آمن به غيرهم أو لا.

– أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم؛ بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

[العنكبوت: ٤٧ -٤٩].

– أنه سبحانه أمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يسأله مزيد من العلم، فقال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وكفى بهذا شرفًا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه.

– أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم

والإيمان خاصّة، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١].

– وأنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

[الروم: ٥٥ – ٥٦].

– وأنه سبحانه أخبر أنهم أهل الخشية، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء، فدلّ على أن هذا

الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين. وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه:«كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا».

- أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيرًا كثيرًا، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: «الحكمة إصابة الحق والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح».

- أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وجعل من أجلها أن آتاه الله الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾ [النساء: ١١٣].

- **قال تعالى:** ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: «والدعوة إلى الله هي

وظيفة الرسل وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أمتهم، والناس تبع لهم» [(بدائع التفسير) (٤/ ١٠٣) بتصرف].

وقال أيضًا - رحمه الله تعالى -: «فهؤلاء خلفاء الرسل حقًا، وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وعملًا وهدايةً وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء».

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٢٩٣)].

- **وقال تعالى**: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون.

- أن الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار، ومرة يذكر اللسان الذي يترجم به عن القلب، فقال تعالى في «سورة النعم وهي سورة النحل» التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها، فعدد نعمه فيها على عباده، وتعرف بها إليهم، واقتضاهم شكرها،

وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

[النحل: ٧٨].

فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه، وأنه فعل بهم ذلك ليشكروه، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ - ١٠].

وقال أبو هلال العسكري - رحمه الله -: «من عرف العلم وفضله لم يقض نهمته منه ولم يشبع من جمعه طول عمره».

[(الجامع في الحثّ على حفظ العلم) لأبي هلال العسكري - الخطيب البغدادي - ابن عساكر - ابن الجوزي ص(٢٥) - مكتبة ابن تيمية - مكتبة العلم].

- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء.

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٤٧٤ - ٤٧٦)].

- أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذي هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ولهذا مدح الله سبحانه أهله في كتابه وأثنى عليهم بقوله: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله في حق خليله إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥].

وذم من لا يقين عنده فقال: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

– أن الله سبحانه نفى التسويّة بين العالم وغيره، كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب، وبين الأعمى والبصير، وبين النور والظلمة، وبين الظل والحرور، وبين أصحابه الجنة وأصحاب النار، وبين الأبكم العاجز الذي لا يقدر على شيء، ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وبين المؤمنين والكفار، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، فهذه عشرة مواضع في القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف. وهذا يدلّ على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة، والظل من الحرور والطيب من الخبيث، ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابلة. وهذا كاف في شرف العلم وأهله بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها ووجدت نفي التسوية بينها راجعًا إلى العلم وموجبه فيه وقع التفضيل وانتفت المساواة.

- أن سليمان - عليه السلام - لما توعّد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم واقدم عليه في خطابه له بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] خبرًا وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

- وما حصل ليوسف - عليه السلام - من التمكين في الأرض والعزّة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به، حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العزّ والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل إليها بالعلم، كما أشار إليها سبحانه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦]، جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم؛ كما رفعنا درجة يوسف - عليه السلام - على أخوته بالعلم.

- **وقال تعالى في إبراهيم - عليه السلام -:** ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ فهذه رفعة بعلم الحجة، والأول رفعة بعلم السياسة.

- **أن الله سبحانه أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ﴾... مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه.

- وكذلك ما حصل للخضر - عليه السلام - بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾.

- وكذلك ما حصل لسليمان - عليه السلام - من علم منطق الطير حتى وصل إلى مُلك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته ولذلك

قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾.

– وكذلك ما حصل لداود – عليه السلام – من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾.

– وكذلك ما حصل للمسيح – عليه السلام – من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفضَّله وكرَّمه.

– وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم – صلى الله عليه وسلم – من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾.

* * *

فضل العلم وبيان شرف أهله في السنة النبوية المطهرة

في «الصحيحين» من حديث معاوية - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين**».

[«البخاري» رقم (٧١) و«مسلم» برقم (١٠٣٧)].

وفي «الصحيحين» أيضًا من حديث أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة...**» الحديث.

[«الإمام البخاري» (٧٩)، والإمام «مسلم» (٢٢٨٢)].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**...ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم**

الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه» [رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه الشيخ الألباني كما في (صحيح الترغيب والترهيب) (١/ ١٣٧، ١٣٨)].

وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» [ورواه أيضًا ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه» والبيهقي في (الشعب) وقال الشيخ الألباني: حسن لغيره كما في (صحيح الترغيب والترهيب) (١/ ١٣٨)].

وعن صفوان بن عسال المرادي - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في المسجد متكىء على

بُرد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم. فقال: «**مرحبًا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة وتظله بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب**» [رواه الإمام أحمد، والطبراني، وابن حبان، والحاكم، وحسن إسناده الشيخ الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) (١/ ١٣٩ - ١٤٠)].

وعن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**» [رواه الطبراني في (الأوسط) والبزار، وقال الشيخ الألباني صحيح لغيره كما في (صحيح الترغيب والترهيب) (١/ ١٣٧)].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» [رواه مسلم].

* * *

فضل العلم وبيان شرف أهله فِي أقوال السلف الصالح

أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفًا، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك.

كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على أهل مكة فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزي. فقال: من ابن أبزي؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، فقال عمر: أما أن نبيكم قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**».

وقال أمير المؤمنين الفاروق عمر - رضي الله عنه -: «لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها: لولا أن أحمل أو أجهز جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدة هذا الليل، ولولا مجالسة

أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر، لما أحببت البقاء».

فالأول: الجهاد، **والثاني**: قيام الليل، **والثالث**: مذاكرة العلم.

فاجتمعت في الصحابة بكمالهم، وتفرقت فيمن بعدهم»

[(مفتاح دار السعادة) (١/ ٣٩٣)].

وقال أيضًا - رضي الله عنه -: «أيها الناس عليكم بالعلم، فإن لله سبحانه رداء يحبه، فمن طلب بابًا من العلم رداه الله بردائه، فإن أذنب ذنبًا استعتبه؛ لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به» قلت: ومعنى استعتاب الله عبده أن يطلب منه أن يعتبه أي: يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة.

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم(١/ ٣٩٧ - ٣٩٨)].

وقال الحسن البصري - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هي: العلم والعبادة ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ هي الجنة. وهذا من أحسن التفسير؛ فإن أجلّ حسنات الدنيا: العلم النافع، والعمل الصالح.

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٣٩٧)].

وقال سفيان بن عيينة - رحمه الله -: «أرفع الناس عند الله منزلة، من كان بين الله وبين عباده: وهم الرسل والعلماء».

وقول ابن المبارك - رحمه الله -: وقد سُئل: من الناس؟ قال: «العلماء».

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (١/ ٤٠٠)].

وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: «إن من أدرك العلم لم يضره ما فاته بعد إدراكه، إذ هو أفضل الحظوظ والعطايا، ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ، بل يكون وبالًا عليه، وسببًا لهلاكه.

وفي هذا قال بعض السلف: «أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم!!!»

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم(١/ ٤٠٠ - ٤٠١)].

وقال أيضًا - رحمه الله -: «إن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالمطر للأرض فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر، فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم».

[(مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم(١/ ١٦٨)].

وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لكميل بن زياد النخعي رحمه الله تعالى

روى كميل بن زياد النخعي قال: «أخذ علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بيدي فأخرجني ناحية الجبانة، فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال: «يا كميل بن زياد القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكوا على الإنفاق – وفي رواية – على العمل والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي

الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه..هاه..إن ها هنا علمًا - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حملة بل أصبته لقنا غير مأمون (أي: فهمًا غير ثقة). [انظر (لسان العرب) (١٣/ ٣٩٠)].

عليه يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده، أو منقادًا لأهل الحق، لا بصير له في أحبائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك، أو منهومًا للذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار، ليسا من دعاة الدين أقرب شيء شبهًا بهم الأنعام السائمة؛ لذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته؛ لكيلا تبطل حجج الله وبنياته، أولئك الأقلون عددًا الأعظمون عند الله قيلًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا

بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه[١] ودعاته إلى دينه، هاه..هاه..شوقًا إلى رؤيتهم، واستغفر الله لي ولك. إذا شئت فقم».

[ذكره أبو نعيم في (الحلية) وغيره].

قال أبو بكر الخطيب – رحمه الله –: «هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى، وأشرفها لفظًا. وتقسيم أمير المؤمنين للناس في أوله، تقسيم في غاية الصحة، ونهاية السداد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها، مع كمال العقل، وإزاحة العلل.

أما أن يكون عالمًا أو متعلمًا، أو مغفلًا للعلم وطلبه، ليس بعالم ولا طالب له. فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها.

(١) انظر كلام العلامة ابن القيم – رحمه الله – على هذه الفقرة، ونقله للخلاف فيها، في (مفتاح دار السعادة) له (١/ ٤٦٩ – ٤٧٤).

العلم - كل العلم - في الكتاب والسنة وما دار في فلكهما، وما عدا ذلك - في باب الشرعيات - فهو وساوس شياطين الإنس والجان.

قال الإمام القرشي المطلبي الشافعي - رحمه الله تعالى -: «...لأن الله جلّ ثناؤه أقام على خلقه من وجهين: أصلهما في الكتاب: كتابه ثم سنة نبيه» [(الرسالة) للإمام الشافعي ص(٢٢١)].

وقال أيضًا: «...وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأن ما سواهما تبع لهما» [(جماع العلم) ص(١١)].

وقال حافظ المغرب، أبو عمر، ابن عبد البر - رحمه الله تعالى -: «وأما أصول العلم: فالكتاب والسنة».

[(جامع بيان العلم وفضله) (٢/ ٣٣)].

وقال شيخ الإسلام، وحسنة الأيام، وزينة الأعلام - ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «وأوجب عليهم الإيمان به، وبما جاء به، وطاعته، وأن يحللوا ما حلل الله ورسوله، ويحرِّموا ما حرموا الله ورسوله» [(مجموع فتاوى شيخ الإسلام) (٩/ ١٩)].

وقال العالم الرباني ابن القيم - رحمه الله تعالى -: إن الله سبحانه قد أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

وفي إبطال خطل ما أسموه بالمكاشفات، ولوثه الإشارات، وهلوسة اللدنيات قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «...فكما بلّغ الرسول ألفاظ القرآن للأمة بلّغهم معانيه، بل كانت عنايته بتبليغ معانيه أعظم من مجرد تبليغ ألفاظه» [(الصواعق المرسلة) (٢/ ٦٣٦)].

* * *

دعوى التصوف الاستمساك بالوحيين والاستسلام للمعصومين

أما دعوى التصوف واتباع الكتاب والسنة فهي دعوى قديمة لم يقم أصحابها - عمليًا حتى الآن - بينات على صدقها فنبذت من قديم، وهذا كثير في كلام مشايخهم - وسيأتيك من أقوالهم هم ما يبطل كلامهم نفسه:

كقول **الشيخ أبي سليمان الداراني**: «أنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة».

وقال **أبو القاسم الجنيد** - رحمة الله عليه -: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، - أو قال -: لا يقتدى به».

وقال **أبو عثمان النيسابوري**: من أمَّر السنة على نفسه، قولًا وفعلًا، نطق بالحكمة، ومن أمر بالهوى على نفسه، قولًا وفعلًا نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾.

وقال أبو عمرو ابن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وما ألمس من بهتان مُسِفٍّ في فجور الزور، وقحة الكذب.

كبهتان النابلسي: يزعم أن الصوفية تعتد بالكتاب والسنة في إيمانهم بوحدة الوجود إذ يقول: «إن عمدتنا وعدتنا هو التمسك بالقرآن العظيم، وسنة نبيه الكريم في معرفتنا بربنا، وإطلاق ما أطلقه على نفسه في كلامه القديم وما أطلقه عليه نبيه البر الرحيم» [عن رسالة (حكم شطح الولي) للنابلسي مخطوطة بالظاهرية بدمشق رقم (٤٠٠٨) نقلًا عن كتاب (شطحات الصوفية) ص(١٥٣)].

وهذا النابلسي - عبد الغني بن إسماعيل النابلسي ت ١١٤٣هـ - قال عند قوله: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ بأن تكون أنا، وأكون أنا أنت وقوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾، بقوله: «أي ذاتي فأظهر بك وتغيب أنت وتظهر أنت وأغيب أنا، وما هما اثنان بل عين واحدة» [(عن رسالة - حكم شطح الولي) للنابلسي مخطوطة بالظاهرية بدمشق رقم (٤٠٠٨) نقلًا عن كتاب (شطحات الصوفية) ص(١٥٣)].

«هكذا كل نحلة تثير على كتاب الله حرب أضغانها، فهي لا تستعلن بتكذيب الله في وحيه، وإنما تزعم – لتفتن الناس عن دينهم الحق – أنها تقدسه».

[(هذه هي الصوفية) ص(٥٩)].

* * *

بيان معتقد التصوف فِي العلم وموقفه من حملته

«إن بين الفقهاء والصوفية عداوة قديمة كانت الشريعة السبب فيها، فإن الفقهاء يأبون إلا تقييد الصوفية، والصوفية ينزعجون من ذلك، ويرون في الحقيقة والكشف سببًا لعدم التقيد التام بها، فقد تأتي أحكام الحقيقة على خلاف ما تأتي به الشريعة. والصوفية يريدون من الفقهاء أن يقتصروا على تبيين أحكام الطهارات والحيض والنفاس، وأن يتركوا الصوفية وكشوفهم وأحوالهم وإن خالفت الشريعة».

- ومن صور استهانة المتسمون بالمتصوفة بالسادة الفقهاء:

قول أبي العباس المرسي: «وأما الخضر - عليه السلام - فهو حي، وقد صافحته بكفي هذا، فلو جاءني الآن ألف فقيه يجادلوني في ذلك ويقولون بموت الخضر ما رجعت إليهم» [انظر (لطائف المنن) للشعراني ص(٤٨٠)].

روى القشيري عن أبي بكر الوراق قوله: «آفة المريد ثلاث: التزويج، وكتابة الحديث، والأسفار».

[(الرسالة القشيرية) ص(٩٢)، والنقل عن (النقشبندية) ص(٩١)].

ويقول أبو اليزيد البسطامي مخاطبًا أهل الحديث: «أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت» [(طبقات الشعراني) (١/ ٥)، و(الفتوحات المكية) (١/ ٣٦٥)، و(تلبيس إبليس) (٣٢٢،٣٤٤)، و (المواهب السرمدية) ص(٤٩)، و (الأنوار القدسية) ص(٩٩)].

ومن هم الأموات الذين أخذ أهل الحديث عنهم؟ لقد أخذوه عن التابعين ومن قبلهم الصحابة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي قال الله فيه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، أن الهداية لا تكون إلا بهذا الطريق ومن يبتغ غير هذا الطريق دينًا فلن يقبل منه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فبهذا لا يصح أن يُقال بأن كتابة الحديث من آفات

المريد ومشغلته، ولا يصح أن يكون الدين الإسلامي دينين، دين يتلقاه أبو اليزيد عن ربه مع تصريحه بالاستغناء عن الدين الذي أنزله الله على رسوله، ودينًا أنزله الله على رسوله وقال عنه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فهذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ تقطعان الطريق على كل ملحد يزعم لنفسه دينًا آخر يتلقاه عن غير هذا الطريق.

وقال تعالى ممتنًا على عباده: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالقرآن يصرح بأن هذا الطريق هو المنة العظيمة، وأبو يزيد يزدريه ويسميه بعلم الأموات، وأبو بكر الوراق يجعله آفة للمريد، وكلام هؤلاء ضرب للشريعة، ودعوة إلى الناس بالإعراض عنها، بل إن القشيري يحكي عن أحد مشاهير

الصوفية أنه سئل عن سوء أدب الصوفيين مع الله تعالى في أحوالهم، فقال: «انحطاطهم من الحقيقة إلى العلم».

[(الرسالة القشيرية) ص(١٢٦)].

وكذلك روى عن الجنيد أنه قال: «إذا لقيت الفقير - أي: الصوفي - فألقه بالرفق ولا تلقه بالعلم، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه» [(الرسالة القشيرية) ص(١٢٤)، و(أبو حامد الغزالي والتصوف) ص(١٧٨)].

وكذلك سئل الجنيد عن قول القائل: «اقطع القارئين وصل الصوفيين» فقيل له: من القارئ ومن الصوفي؟ فقال: القارئ هو المشغول بالاسم، والصوفي هو المشغول بالمسمى» [(الأنوار القدسية) ص(١٣٢)].

بل أنه يأتي بها صريحة ومن غير مواربة حين يقول: «أحب للمبتدئ ألا يشغل نفسه بهذه الثلاث وإلا تغيرت حاله: التكسب، طلب الحديث، والتزويج، وأحب للصوفي ألا يقرأ وألا يكتب؛ لأنه أجمع له» [(قوت القلوب) (٣/ ١٣٥)].

ويقول أبو سليمان الداراني: «إذا طلب الرجل الحديث

أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا».

[(الفتوحات) (١/ ٣٧)].

ويقول أبو يزيد البسطامي: «أشد المحجوبين عن الله ثلاثة: الزاهد بزهده، والعابد بعبادته، والعالم بعلمه».

[(الأنوار القدسية) ص(٩٩)].

«فالعلم عند أولئك القوم مشغلة وضياع وقت بل هو حجاب عن الله تعالى» [انظر (النقشبندية) ص(٩١ - ٩٥)].

وتزهيدًا في العلم وترهيبًا من الأنكار: يزعمون أن أحمد بن عبد الرحمن السقاف: أنَّه صلَّى بجماعةٍ عند قبر «هود» على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، فاعترض عليه بعض الفقهاء في قلبه ، قال: فسُلب ذلك الفقيه جميع ما في قلبه مِن قرآنٍ وعلمٍ والعياذ بالله.

[انظر ترجمته في (طبقات الشعراني)].

ويزعمون أن وليهم الفرغل: «كان يمشى تحت العرش ويقول: خاطبني ربي وخاطبته» - بدعواه - ويزعم الشعراني: أنَّه مرَّ عليه شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله

بمصر يومًا فقال في سرِّه: ما اتخذ الله مِن وليٍّ جاهل ، ولو اتخذه لعلَّمه !! فقال له الفرغل: قف يا قاضي فوقف فمسكه ، وصار يضربه ويصفعه على وجهه ، ويقول: بل اتَّخذني وعلَّمني !!» [انظر ترجمته في (طبقات الشعراني)].

وهكذا تجد أن هؤلاء الفجرة الكذبة ينسجون الأساطير ويشيعون الخرافات ويذيعون الأكاذيب بل المفتريات، ويتطاولون على المقام السامي العالي ، ويطعنون في الرتبة الشريفة المنيفة – رتبة العلم والعلماء – انتصارًا منهم لمجانينهم بل شياطينهم هذا، ولقد أنكر عليهم الرفاعي نفسه، فقد «كان يعيب على الصوفية موقفهم من الفقهاء، وتذمرهم من إنكارهم الدائم عليهم، قائلًا: «قل يا أخي للمساكين المحجوبين من الصوفية: ما تريدون أن يوجد في قطركم هذا رجل عالم يدفع شبه الملحدين، وأهل البدع والزيغ بالحجج الظاهرة» [(المعارف المحمدية) ص(٧٩)، و(البرهان المؤيد) ص (٩١، ٩٢)، و(الرفاعية) ص(٨٢)].

ويقول – رحمه الله تعالى –: «لو عبد العابد خمسمائة عام

بطريقة غير شرعية، فعبادته راجعة إليه، ووزره عليه، ولا يقيم الله له يوم القيامة وزنًا، وركعتان من فقيه في دينه، أفضل عند الله من ألفي ركعة من فقير جاهل في دينه».

[(البرهان المؤيد) ص(٤)، و(أهل الحقيقة مع الله) ص(٤) و(الرفاعية) ص(٨٣)].

وقوله: **«إياكم ومحدثات الأمور»**، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»** اطلبوا الله بمتابعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإياكم وسلوك طريق الهدى بالنفس الهوى، فمن سلك الطريق بنفسه ضل في أول قدم.

ولقد بالغ الرفاعي في الحث على اتباع السنة إلى درجة قد لا يوافقه عليها كثيرون، وذلك أنه قال: «بلغنا عن بعض الأئمة أنه ما أكل البطيخ؛ لأنه لم ينقل له كيف أكله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما تهاون قوم بالسنة وأهملوا قمع البدع إلا سلط الله عليهم العو... وما انتصر قوم للسنة وقمعوا البدعة وأهلها إلا ورزقهم هيبة من عنده ونصرهم

وأصلح شأنهم» [(الفجر المنير) ص(٢١)، و(البرهان المؤيد) ص(١٠،٣ - ٥٧،٢٠،١١، ٦٥)، و(المعارف المحمدية) (١٣)، و(قلادة الجواهر) (٢٢٠)، و(إرشاد المسلمين) (٤١، ٦٢)، و(الكليات الأحمدية) (٧٧، ٧٨)، و(ترياق المحبين) (١٠)، والنقل عن (الرفاعية) ص(٨٣، ٨٤)].

هذا... و«لقد أشرب غلاة التصوف حب البدعة والدفاع عنها حتى قال قائل منهم: «كل ما ابتدع على طريق القربة إلى الله تعالى فهو من الشريعة والسنة الظاهرة».

[(الأنوار القدسية) للشعراني (١/ ١٢٣) على هامش الطبقات].

إن هذا هو الانحطاط الذي جعل التصوف محط أنظار أعداء الإسلام كالباطنية وغيرهم، يبثون فيه ما يشاءون من سمومهم ليجعلوا أهل السنة ينتمون إلى السنة اسمًا فقط مع كونهم يتبنون في الحقيقة كثيرًا من مبادئ مخالفة للسنة: «كالقول بالعلم الباطن، واستمداد العلوم والبيعات من سلسلة المشايخ الأموات، وهو عين مبدأ التلقي من المعصوم عند الباطنية، والموالد والأضرحة، ولا ننسى تعمد الفاطميين ملء مساجد أهل السنة بالأضرحة أثناء فترة حكمهم في مصر والشام

وغيرها، وكذلك الأحزاب والأوراد التي تتضمن الشرك وسجع العرافين والسماع الذي لا يضاهيهم فيه إلا الرافضة ولو قفل باب البدعة لاستعصى الأمر على هؤلاء الأعداء وسد في وجوههم هذا الباب، وحصن المسلمون دينهم، وطهروا مجتمعهم من أمراض البدع المختلفة التي تعاني منها الأمة والتي توقعهم في سخط الله» [(الرفاعية) لعبد الرحمن دمشقية ص(٨٤، ٨٥)].

فـ«الصوفية لا يبغضون شيئًا في الحياة بغضهم لما أوحى به الله سبحانه إلى رسله، وإذا استشهد صوفي بآية أفسد معناها بأساطير زندقته، وإذا استشهد بحديث، فثق أنه موضوع، وضعته الصوفية منذ خلعت عنها اسم المجوسية وتسمت بهذا الاسم الخلوب المكر والخديعة؛ لتنفث سمومها الفتاكة، وتعيث بزندقتها في عقائد المسلمين فسادًا.

ولذا يقول ابن الفارض: لا تركن إلى الكتاب والسنة، فليس فيهما آثارة من الحق ولا لمع من الهداية ولا إشراق من الحقيقة، وتعال إلي أعلمك علمًا دقيقًا جليلًا يهيمن على الهدى والحق!!» [حاشية (مصرع التصوف) ص(١١٥، ١١٦)].

هذا...و«في الفتح في قصة موسى والخضر تكفير القرطبي: لمن زعم أنه يستغني عن الوحيين بقلبه ويقول: حدثني قلبي عن ربي».

[انظر (فضائح ونصائح) للعلامة الوادعي ص(٢٢٦)].

وقد وضع الإمام النووي - رحمه الله تعالى - فصلًا في مقدمة شرحه للمهذب «فصل: في النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو يبغض الفقهاء والمتفقهين».

[انظر (مصرع التصوف) ص(٢٠١)].

أكرر: العلم في دين الإسلام فإنه محمود ولذلك فقد حث عليه الدليل...إذن فليس العلم مشغله بل هو الطريق إلى الجنة ونور يكشف عورات هذه الظلمات التي يدعوا لها أرباب التصوف عوام الناس؛ لأنه بالعلم يتكشف للناس حقائق طرقهم وزيف أقوالهم المزخرفة بفن الكلام، وبالعلم يتبين المنكر، وبالعمل به يتم الإنكار، ولطالما كان الإنكار حجر عثرة أمام الصوفيين، يؤرق جفنهم، ويعيق طريقهم... ولذلك نفروا الناس منه وشغلوهم بحلقات «الرقص» ونوادي

«الوجد لسماع»، ولبس «الخرق»، والتزام «الخلوات»، وغير ذلك، «فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به هؤلاء».

[والنقل بتصرف من (النقشبندية) ص(٩١ - ٩٥)].

* * *

معتقد الصوفية في القديم والحديث واحد، عند التحقيق

قال الشيخ «الأزهري» السلفي عبد الرحمن الوكيل – رحمه الله تعالى –: «ها أنذا شرقت وغربت، وياسرت ويامنت مع الصوفية أحبارًا وكهانًا قدامى ومحدثين، ونقلت عن سلفهم، وسجل ماضيهم وحاضرهم، نقلت ما يدينون به في أمانة لم يجنح بها عن قدسها غل ولا حقد ولا غضب، نقلت هذا كله ليؤمن من لا يزال على فكره وقلبه غشاوة من سحر الصوفية، أن بأنهم مسلمون – قديمًا وحديثًا في النصرانية وفي اليهودية، وفي دين من خدعوك بأنهم مسلمون – تؤمن بأن هذا الكون كله حتى جيفه ورممه وخنازيره وكلابه، ما هو إلا حقيقة الرب الأعظم «هوية وأنية... هذه هي الصوفية في كتابها فماذا ترى؟ تؤمن بأن الله هو عين خلقه وبأن الماخور عربدت فيه الأبالسة، عين المسجد تبتلت فيه الرسل! وأن الوثنية السامرية هي عين الحق».

[(هذه هي الصوفية) ص(٦٤ – ٦٥)].

وقال - رحمه الله تعالى -: «إنها دين الببغاء تردد ما لا تعي» [(هذه هي الصوفية) ص(٧١)].

* * *

نصيحة

ويصف الشيخ الجامي - رحمه الله تعالى - الدواء الناجع الناجح لدائهم المهلك المردي، فيقول: «إن عدم الفقه الدقيق هو الذي حمل العباد أو المنتسبين إلى التنسك والتعبد على ابتداع طقوس بعيدة عن روح الإسلام وأطلقوا عليها أسماء من عند أنفسهم على حساب الإسلام وفرقوا بها جماعة المسلمين، ووزعوهم على تلك البدع وأعلنوا عن أنفسهم أنهم أهل الله وأحباؤه ولهم صلاحية ليست للأنبياء والرسل، إذ في إمكانهم أن يأخذوا الدين وشرائعه عن الله مباشرة بغير واسطة جبريل - عليه السلام - ودون الحاجة إلى الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - هكذا تدعوا جهلة الصوفية» [(مشاكل الدعوة والدعاة في العصر الحديث) للشيخ محمد أمان الجامي - رحمه الله تعالى - رئيس كلية الحديث الشريف، ورئيس شعبة العقيدة بالدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا ص(٢٢) - دار المنهاج - ١٤٢٤هـ].

ورحم الله تعالى العلامة الإمام أبا عبد الله شمس الدين ابن القيم - الثمرة الجميلة الحلوة من ثمار رياض شيخ الإسلام والتي تفتحت وازدهرت في روضة علم تقي الدين مع أخواتها فانتظمت لوحة بديعة رائعة رائقة تسر الناظرين وتبهج الطالبين ويتهاداها المحبون - إذ يقول: «العقول المؤيدة بالتوفيق ترى ما جاء به الرسول - صلى الله علي وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة... أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال».

[(الفوائد) ص(١٤٨) دار الريان للتراث - الطبعة الأولى ١٤١٧هـ].

هذا..وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

أخوكم

أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد

في ١٤/ ٢/ ١٤٢٦هـ

٢٤/ ٣/ ٢٠٠٥م

الفهرس

مكتب عثمان بن عفان
للصف التصويري والإعداد الفني
جوال: ٠٠٢٠١٢٦٣١١٤٤٨